أربعون عاما

لم أكن في حياتي أومن بالحب من أول نظرة، فأي شيء أثار عواطفي بمثل ذلك العنف لهذا الشاب الذي لم أكن أعرفه قبل يومين..

لم أشعر يوما بالرغبة في أن يضمني رجل، في أن يلهب شفتي كما شعرت في تلك اللحظة حتى لأحس بحنين قلبي يطفر دمعا رقيقا في عيني وأنا أصغي اليه مسحورة بما أوتي من موهبة فذة بتصوير المواقف وتحليل الناس تحليلا عميقا فيه كثير من قوة الملاحظة ونفاذ البصيرة وروح المرح. كنت أتأمل وجهه الأسمر المربع وعينيه الشهلاوين تلتمعان ببريق ذكاء حاد، وشاربيه الرفيعين يظللان شفته العليا ويكثفان تحت أنفه المستقيم، وفمه المعبر يكشف عن كل أسنانه النضيدة المتلألئة وهو يتحدث وقد مال بجسده الى الأمام، ورفع عمرته الى أعلى جبينه الدافق المستدير، وبان الحد الفاصل بين ما لفحته الشمس وما بقي دون لفحها، وهمست لنفسي وأنا أحس بالرعشة تهز كياني "ان رجولته طاغية، وجاذبيته لا تقاوم!

رحت أسير واياه في الشوارع على غير هدى، يدي بيده ولست أدري الى أين ينتهي بي ذلك الحب الوليد، وتوقفنا معا قرب ياسمينة تطل من حاجز حديقة وتفعم الجو بعبير شاعري في أصيل ذلك اليوم من أوائل ايلول.. ونزع منها بضعة زهرات ناولني اياها ونظر الي بشغف وابتسم ابتسامة فاتنة، آه لقد وجدت رجلي! لا يمكن أن تكون تلك النظرة عابرة في حياتي، انني أحس بحدسي الذي لا يخطئ أن القدر أبرم مصيري..

لم أكن حين جئت دمشق قد لملمت بعد جراحي إثر وفاة أختي.. لقد تصدع قلبي حتى لأخال برؤه محالا ولو مضى عليه مائة عام، لكأنما فارقه الى الأبد الأمل والمسرة والعافية، وعبثا رحت أنشد السلوى والعزاء، لقد طعنت في أمومتي، وهل كنت سوى أما صغيرة لأختي؟ كنت أتمنى لو أغرق في حب كبير، أن أشد قلبي الى قلب أغرق فيه أحزاني ولكنني كنت أخشى الحب بعد تجربتي القاسية حتى أختي الصغرى وأصغر أخوتي أغلقت دونهما قلبي،

وانطويت على نفسي أكتب في سريري حتى يدور رأسي إعياء، فأنام وقلمي ودفتري تحت وسادتي، أو يعضني الجوع فآكل ما يسد رمقي وأعود متلهفة الى الكتابة. وكنت كثيرا ما أسمع تذمر والدتي في المطبخ حين يرهقها العمل لعائلة كبيرة فلا تجد معينا لها فأتأوه في صمت، وأسترسل في عملي متوترة الأعصاب هائجة النفس أريد جاهدة لو أبرهن لها أنني لا أضيع الوقت دون طائل، ولم أترك التدريس عبثا في شيء غير مثمر.. وأقول لنفسي وأنا أتحرق لأنتهي مما أنا فيه "غدا سأشتري لك يا أمي آلة غسيل، وأبني قبر أختي، وأنفق على تعليم أخوي وأساعد أخي عادل ليتزوج"، هذا الأخ الحبيب الباسل ذو القلب الذهبي الذي لا يضن بروحه من أجلنا، هذا الأخ الكريم الذي قدّم لنا عشرين عاما من جهده دون أن يتذمر أو يمن علينا.. آه لو أن جهدي يثمر فأفيه بعض ما أدين له! فلولاه لكنت اليوم جثة في قبر.. كنت أحس بالنار تشتعل في ضلوعي وأنا أراه يكدح طوال شهر لقاء سبعين ليرة، وعندما أسمع شخيره يتعالى في الليل من الإعياء لا أملك الاّ أن أشيح بوجهي وأذرف الدمع، لماذا لا تتيح هذه الحياة السعادة لأفراد عائلتي؟ لماذا يكدحون جميعا دون أن تتوفر لهم أبسط متطلبات الإنسان؟ كنت حين يأتي مستهل كل شهر وأسمع الشجار ينشب بين أخوي حول تدبير النفقات أشعر بالخجل أنني لا أعمل ولا أساهم معهم في الضائقة التي تأبى أن تزول، ولكنني أواري خجلي، وأستمر بالكتابة، أريد أن أنقل الى الورق ما شاهدته في دنياي، أريد أن أبني أدبا يخدم الناس وقضاياهم، أدبا يثور على كل ظلم واستثمار لهم، أريد أن أطور ثقافتي لأخدم أدبي، لقد عملت ثلاث سنوات لأفي أثمان الأدوية وماتت أختي! لم أستطع انقاذها. ولعل الدور سيلحقني، ألست أرى وجهي في المرآة ذابلا شاحبا وعيناي قد فقدا البريق؟

لم أكن أريد أن أموت وأدفن ثورتي معي، وكنت أريد أن أراها لهبا على الورق، فصحتي المرهفة تذكرني دائما أن العمر لن يطول بي فأتحرق شوقا لأجعل من حياتي القصيرة شعلة حية لغيري..

أحببت أدبي الى الدرجة التي أضحي فيها بالزواج والأمومة لأرتفع وأسمو به الى الخلود، وفي العمر الذي تتلهف فيه الفتيات للحب والزواج، كان يشغل

فكري هموم العالم من حولي، تعصف بي ارادة التغيير، أحلم بعالم أفضل، أمسك بقلمي لأناضل من أجله دون أن أعرف طريق النضال، أتحدى به الموت في ميعة الصبا دون أن أترك أثرا، أشعر بأنني مسؤولة أمام ربي عن هذه الموهبة التي فجرتها الأحداث الدامية في أعماقي، فما قيمة أفراحي الخاصة أمام فرحتي يوم يثمر النضال في سبيل حياة أفضل ويتوج جهدي المتواضع في تحقيقه؟ ولكن كان من العسير علي أن أجعل من حولي يدركون هذه الأمور حين أغلق أذني دون نداء الحياة اذ تناديني.. لماذا أشعر بالكآبة تعصر قلبي لما تخفق له قلوب الفتيات غيري، ولماذا يبدو لي الزواج كمدفن علي أن أواري فيه كائنا عزيزا علي، عزيزا علي أكثر من نفسي..

عبثا رحت أقاوم ارادة الحياة القاهرة في أن أحب وأكون زوجة وأما، وحرت في نوازع نفسي تؤرجح بي كرقاص ساعة، فلا أكاد أوشك على أمر حتى أنفر كغزال شرود.. لم أخلق لأسر نفسي في رابطة تفرض علي ارادة غيري، أفيمكن أن يضع هذا الرجل حدا لقلقي وترددي، ولا يترك لي مهلة التفكير في أمري؟ كنت أرى هذا في عينيه وهو ينظر الي.. رأيت فيهما أحلامي وأشواقي واستمرار نضالي، وكنت أحس بهذا في أعماق سريرتي، فالإنسان تعبر به أحايين يكون فيها أقوى ما يكون ثقة بنفسه، ثم تزحف وراءها أحايين أخر يصبح فيها على أوهن ما يكون. لم أكن مستعدة وأنا مشرفة على أبواب عام جديد أن أعود الى المدرسة فتهتف بي المحاسبة في عجب: ألم تتزوجي بعد؟ وتلاحظ بضع شعرات قد ابيضت في غرّتي قبل الأوان وتنصحني أن أعجل بالزواج..

آه لو أن الناس يتركونني وشأني! آه لو أن أهلي يتركونني وشأني! ان أمي لا تفتأ تقول لي بأنني أضيع شبابي سدى في عبث لا طائل منه وسأندم حين لا ينفع الندم..

أولم تصدق فراسة أمي؟ أو لم يصدم الواقع المر أحلامي وأماني؟

كنت قد ذهبت في العام الذي مضى مع أخي عادل الى ناشر في بيروت أعرض جهدا كلفني ثلاث عطل مدرسية ثم عاما بعدها انقطعت عن التدريس، وكنت أحرق دماغي عشر ساعات في اليوم وأنا أكب على تلك الرواية التي كتبتها

بكثير من الدموع وتوتر الأعصاب، وهيجان العاطفة.. بل ألم أكن أطفئ حياتي كي أجعلها تنير؟

قلب الناشر صفحات "بستان البرتقال" على عجل وقال "ان لغتك صحيحة، فعندنا في لبنان نادرا ما تكتب الفتيات عندنا بعربية سليمة..

- أهي مجرد لغة صحيحة؟

كنت في مستهل حياتي أكتب بأسلوب منمق مقلدة أسلوب طه حسين، ولكنني لم ألبث أن تركت نفسي على سجيتها، وتحررت لغتي من كل تقليد، وتحررت من كل صنعة وتكليف.. ما عدت أريد منها الاّ أن تكون روحا تنقل أفكاري كالريح، كاللهب.. ما قيمة اللغة والكلمات ان لم تكن حياة؟ ان لم تبك حيث يراد لها أن تبكي، وتضحك حيث يراد لها أن تضحك، وتبعث على التفكير حيث يراد لها أن تبعث على التفكير، وتطلق طاقة الإنسان المبدعة أو ثورته على الظلم والكبت والنفاق. ما قيمة اللغة والكلمات أن لم تكن عامرة بصدق العاطفة، شجاعة في الحق، مفعمة بحب الجمال وبحب الإنسان، وبحب الإنطلاق والحرية لهذا الإنسان؟

قال الناشر وهو لا يزال يقلب الصفحات بفعل الإستمرار دون أن يتوقف ليقرأ شيئا منها.

- هل تحسنين لغة أجنبية؟
- نعم وأدرّسها.
- حسنا جدا، من الأفضل أن تترجمي، انني أعرف السوق، والمترجم منها ينفق أكثر مما ينفق الموضوع.
- ولكنني لا أرغب أن أضيع وقتي في الترجمة.
- يجب أن تبدئي حياتك الأدبية في الترجمة، لا تتعجلي! استمعي الى نصيحتي ان كنت تريدين أن تستفيدي من أدبك وتجدي له سوقا.
- كيف لا يجد أدبي سوقا، وآلاف الكتب التافهة تغمر السوق؟
- ربما كانت لأدباء معروفين.
- الأديب المعروف بدأ حياته الأدبية غير معروف، الناس يقرؤون ويميزون.

- انني أطبعها ان شئت على حسابك.

وبدا واضحا أن الناشر لا يريد أن يغامر في طبع رواية لأديبة غير معروفة، وقلت لنفسي "انه تاجر يفكر في ربحه فلأكن لبقة ولأحادثه من الزاوية التي يبالي بها..

كنا جالسين أنا وأخي والناشر في مكتب الأخير الأنيق.. انه شاب عملاق وسيم أنيق كمكتبه، وله نظرة متفرسة يحاول بها أن يستشف ما يدور في خلد الآخرين، قال وهو يحدق بي النظر:

- قد تظنيني تاجرا، قد تقولين بأنني أساوم.
- بل كنت أظن أنه أفضل لي أن أبحث عن ناشر يقدر الأدب الموضوع، الوثيق الصلة بحياتنا ومعاناتنا.

ووقفت أتهيأ للإنصراف. فقال:

- أتركيها لي أقرأها بامعان، ربما أصبحت من عشاق أدبك. وأردف ضاحكا:
- ان الأدباء دائما يكرهون الناشرين، انه عداء قديم، ولكن ثقي أنني لست تاجرا ولست أساوم وانني أعشق وأقدر الأدب أكثر من الأديب نفسه، وأريد مخلصا أن أساهم في النهضة الأدبية ولكنني أنصحك، انني أعرف ما يرغب به القراء، هذا عصر الكتاب المترجم، وخصوصا في لبنان، الشعب هنا لا يحب الاّ ما يأتي من الخارج.

وأحسست بالغضب يشعل دمي وقلت:

- ان الإنسان عندما يترك عمله الذي يعيش منه ويتفرغ لوضع رواية، ويلقى العناء الجاهد، لا يغامر من أجل عمل تافه، من سوء حظي أنني لا أستطيع أن أطبعها على حسابي.

رتب الدفاتر الأربعة البرتقالية اللون ذات المائتي صفحة واحدا فوق الآخر بعناية وقال:

- ماذا تظنين أنني أستطيع أن أدفع لك فيها؟
- لست أدري، انك لم تقرأها بعد..

- وتأوهت في ضميري أنني أجعل من تاجر حكما على إنتاجي، ابتسم:
- كل أديب يأتيني، وملء رأسه الأوهام..

ولم يتم، اذ دخل المكتب بضعة رجال قام لاستقبالهم، وقال أخي عادل الذي كان يصغي للحوار دون أن ينبس بكلمة.

- هيا بنا، ان الرجل مشغول، وعلينا العودة قبل انقضاء النهار، أو أننا سنضطر للمبيت في فندق..

وأحسست بالقهر يدمع عيني:

- ليس بوسعنا أن نأتي كل يوم الى بيروت، احتملني ولو كلفتنا هذه الرحلة، سأنشرها مهما كلّف الأمر، انها تفتح لي طريق الإنطلاق، انني واثقة بأنها تقف في صف الأدب العالمي.

لم يكن عادل قد قرأ روايتي، بل لم يكن ليقرأ حتى قصصي القصيرة، وهل لديه فراغ ليقرأ قصصي؟ آه ان الناس الذين أكتب قصصهم، الناس الذين أتحرّق من أجلهم لا يمكن لهم أن يقرأوني!

لم يلبث أن عاد الناشر الى مجلسه بعد أن خرج الرجال وقال:

- ان أحدهم أديب يلح علي أن أطبع قصته دون مقابل.

ضاقت بي الدنيا، وتململت في مكاني، وابتسمت بمرارة:

- ولهذا لا يتوهج عندنا أديب.. وأضفت ساخرة:
- من الأفضل أن تستوردوا سخافات مصر وتملأوا واجهات المكاتب بالكتب الجنسية، وقصص الكاوبوي الأميركية التي لا تمت الى واقعنا بصلة.. هذا الواقع الذي يهز الجبال الشامخة وأنتم لاتدرون أو تحسون به.. عن أية نهضة أدبية تريد مخلصا أن تساهم بها؟

ابتسم محرجا:

- انك تظنين أن هذا ذنبنا، أليس كذلك؟ المجال ضيق أمام الكتاب السوري واللبناني، فمصر تغلق أبوابها دوننا، والعراق تغلق أبوابها دوننا، ولا يبقى من القراء سوى الطبقة المثقفة في بلادنا، وهذه الطبقة ضئيلة، وتطالع باللغة الفرنسية عادة.. دعينا نأخذ كتابك مثلا، لو نزل الى السوق فانه سينزل الى السوق ولن

تمتد اليه يد لأنك أديبة غير معروفة، هذا أولا، وثانيا ستكون كلفته غالية لأنه كبير الحجم، وحتى لو لقي نجاحا فماذا تظنين أنه يباع منه؟ وماذا تظنين أنه يبقى منه بعد أن ننحي تكاليف طبعه والدعاية له، ونقله وتوزيعه وربح التاجر منه؟

وبدأ في سلسلة من الأرقام ولكنني لم أصغ، رحت أفكر كم من المواهب الفتية دفنت على هذا الكرسي الذي أجلس عليه، أيمكن أن أصدق هذه العملية الحسابية الطويلة؟ كان أخي عادل مرهف السمع يحسب في فكره وأخيرا قال:

– يبقى لك مائة ليرة لبنانية اذا كنت محظوظة وبيعت كل النسخ..

وابتسم الناشر كأنما يقول لي "ما أفعل؟ هذا قدر الأديب، عملية النشر عملية معقدة ينتفع منها كل المشاركين بها ما عدا الأديب نفسه صاحب المشروع، اذ يكفيه أن يرى اسمه مكتوبا على الورق".. اكتسى وجهه بتعبير متعاطف كأنما يشاركني الألم لهذا القدر الظالم، ولعلي كنت أصدقه لأنه بالغ اللطف رقيق جدا في إصغائه وابتسامته، ولكنه لم يلبث أن رفع الكلفة، وأخذ يسرد لنا قصة كفاحه ونجاحه وكيف بدأ العمل صغيرا جدا وانتهى به كبيرا جدا.. لعلي كنت أصدقه، وأمتثل لنصائحه، لأنني لا أدري السرفي النجاح الهائل السريع الذي يلاقيه مثل هؤلاء الناس، ولكنني تذكرت الخمس وعشرين شهرا التي أتلفت فيها صحتي، وضحيت بالمئات من الليرات كل شهر في التدريس لأكتب رواية أكون محظوظة لو نلت فيها مائة! ولم أر أنه بالغ اللطف رقيقا جدا في إصغائه وابتسامته، وأجلت عيني في أنحاء المكتب الأنيق بأثاثه الثمين والمكتبات الفخمة التي تطل من وراء زجاجها الضاحكة.. أهي حقا ضاحكة؟ أليس شعاعها دم المؤلف الذي يقطر ليتحوّل الى ذهب في جيوب هؤلاء الناس؟

– سأعود للتدريس – قلت لأخي عادل– ولعلي أستطيع أن أطبع الكتاب يوما على حسابي..

لم يتركني أخرج دون أن يزودني بمجموعة من الكتب الأكثر رواجا لديه، وانحنى على طرف المكتب يخط كلمات الإهداء، وقال وهو يناولني الكتب:

– فكري في الأمر، وابدئي حياتك الأدبية بالكتاب المترجم!

منذ ذلك اليوم آمنت بالوحدة العربية!